دفاتر نايا

مسرحية

إهداء

إلى نايا

التي عرفتها صغيرة ندية

ورأيت صورتها كبيرة صبية

يا للزمن الوامض!

إلى أين يسير هذا النهر الذي لا يتوقف عن الجريان؟

الشخصيات

مايا: صديقة نايا من طبيعة أخرى

نايا: وتؤدى أيضاً أدوار: **عشتار**

دليلة

لونا

شجرة الدر

شخصيات دفتر عشتار:

عشتار

مايا

تموز

إيفا

جَنان

شخصيات دفتر دليلة:

القاصود

زوج دليلة

دليلة

مايا

شخصيات دفتر لونا:

رجال سود

لونا

الطبيب

مايا

شخصيات دفتر شجرة الدر:

الراوي

شجرة الدر

مايا

فخر الدين يوسف

ركن الدين بيبرس

المستعصم بالله

العز بن عبد السلام

أمير مملوكي

فلاح مصري

الملتحي

(بيت منفرد عن البلدة أو القرية، خرب، جدرانه متداعية، ولم يبق فيه سليماً إلى حد ما سوى غرفة متشققة الجدران ومطبخ، سقف الغرفة مائل يكاد يسقط، وتتناثر هنا وهناك بعض الأحجار الناتجة عن التهدم. وعلى الرغم من ذلك فإن البيت نظيف ومعتنى به، وثمة أصيصان أو ثلاثة للزهور وشجر الزينة.

على امتداد النظر تمتد بيوت مبنية من الطين أو الحجر، أما الطينية فمنها ما هو عادي، مستطيلة أو مربعة، ومنها ما هو على شكل قباب طينية كالتي تبنى منذ مئات السنين، وهذه البيوت خالية تماماً من السكان، حتى إنك لا ترى حيواناً يسير خلالها.

في الخلفية تمتد بحيرة ملحية، وليس هنالك من يعمل فيها ويستخرج الملح المتجمع في أطرافها.

لا شك أن المكان يبدو وكأنه قد أصابته كارثة ما: زلزال طبيعي، أو تعرض لقصف، وثمة آثار لمعارك سابقة، مهما يكن فإن المكان أصبح مهجوراً تماماً وموطناً للجن.

صمت تام، ثم يبدأ صوت الرياح مختلطاً بعزيف الجن وثرثراتهم غير الواضحة. يستمر ذلك فترة ثم يسود الصمت مرة أخرى.

تخرج من بين خرائب الدار «مايا» وهي فتاة جميلة تلبس ثوباً من الريش ذا لون أحمر ناري مرقط بالأسود، ولها في جانبيها

جناحان صغيران من الريش، تُحلّي ساعديها العاريين بأساور من الأصداف والخرز الملون الجميل، وعلى صدرها تتدلى قلادة من اللؤلؤ. هي في الحقيقة جنية ونموذج للجمال والوداعة والمرح.

تقف أمام الغرفة وتخرج من جيبها صناجتين صغيرتين تضعهما في إصبعيها)

مايا : **(تصنج بالصناجتين وتصوت بفمها)** تس تس.. تس تس.. **(تصنج)** تس تس.. تس تس **(تصنج وتكرر ذلك مرات عدة، وعندما تجد أن لا أحد يرد تتناول حصاة صغيرة وتقذف بها نافذة الغرفة، تتحول الحصاة إلى عصفور يقف على النافذة ويزقزق.**

تخرج نايا في قميص النوم وهي تفرك عينيها من أثر النوم. الفتاتان في عمر واحد، في العشرينات تقريباً، وتشبهان بعضهما بعضاً كأنهما توأم حقيقي).

نايا : لماذا توقظينني باكراً يا مايا؟

مايا : لقد متع النهار يا نايا وأنت لا زلت نائمة، الشمس كادت تتوسط السماء.

نايا : أوه.. صحيح.. لا يوجد ساعة في البيت، وقد سهرت أمس حتى مطلع الفجر.

مايا : وماذا كنت تفعلين؟

نايا : أكتب وأطالع في دفاتري.

مايا : ألم نكتبها معاً؟ بيننا عِشرة دهر يا نايا.

نايا : أعلم ذلك **(تبتسم)** ولكنني أحب أن أخص نفسي بأشياء لا تطلعين أنت عليها، أكتب أحياناً بين السطور.

مايا : **(تضحك)** لا تستطيعين أن تخفي عني شيئاً يا نايا، فأنا شقيقتك وقرينتك، نشأنا وعشنا معاً ولا نزال.

معاً فرحنا وتألمنا، ضحكنا وبكينا، سعدنا وشقينا، تعلَّمنا معاً ولعبنا.

معاً كنا ولا نزال فكيف تظنين أنك تستطيعين أن تخفي عني بعض ما في نفسك وأنا في داخلك؟

نايا : **(تبتسم)** أنا أحاول يا صديقتي اللذيذة.

مايا : لذيذة !

نايا : نعم، لذيذة، هذه صفة تفوق كل وصف آخر أحبّه.

مايا : يا لك من شقيقة رائعة.

نايا : أراك تلبسين الريش، يبدو أنك كنت على سفر.

مايا : أنا دائماً على سفر. كان عليّ أن أقابل أخي.

نايا : لم تقولي لي من قبل إن لك أخاً.

مايا : إنه يكبرني، ويهوى الإقامة في الجزر البعيدة حيث الهواء والشمس والسلام، والأمسيات السحرية في ضوء القمر.

نايا : يبدو أنه شاب رومانسي، ما كنت أظن أن بينكم رومانسيون.

مايا : الرومانسية نزعة مشتركة بين الثَّقَلين، الملائكة وحدهم لا يكونون رومانسيين، إنهم من طبيعة النور الباردة والهادئة. ولا تنسي أن أخي شاعر وله ديوانان من الشعر في الغزل ووصف الطبيعة، ويكتب الشعر الغنائي بالمحكية أيضاً.

نايا : لقد شوقتني لمعرفة أخيك.

مايا : لا بد أن أعرفك به، ستحبينه يا نايا.

نايا : **(مازحة)** أخشى أن يقع في غرامي.. أنا فتاة متعِبة.

مايا : ولم لا يكون ذلك، إنه يحلم بفتاة مثلك تشبهني تماماً. والفتاة العادية لا تستحق الحب. لا بد للفتاة منكم أن يكون لها جانب من الطبيعة النارية لتكون مميزة.

نايا : وفي المقابل لابد للفتاة منكم أن يكون لها جانب من الطبيعة الترابية حتى تكون مميزة.

مايا : هذا صحيح، وأنا متأكدة بأن أخي سيعجبك.

نايا : دعك من هذا الحديث، يفصل ما بيننا مسافات وطبائع.

مايا : ستلبسين يوماً ثوب الريش هذا، وسأفرح بك.

نايا : وما الذي سيقدمه لي ثوب الريش هذا؟

مايا : الكثير.. إنه يجعلك أكثر خفة وحركة، ويعدِّل من طبيعة المرء.

نايا : لا أريد أن أتغير، سأبقى كما أنا، بعضهم اليوم يغير من جنسه: المرأة تصير رجلاً، والرجل يصير امرأة. هذا ضد الطبيعة الأولى، ومجرد نزوة جنونية وعبث.

مايا : **(باسمة وبثقة)** سترين، الحب يغير الطبائع، ويلغي الحواجز بين العالَمَيْن فيجعلنا نعبر إليكم وتعبرون إلينا.

نايا : ألا تخافين على أخيك؟ أخشى إن أحببت وتزوجت أن أكون كعشتار العاشقة التي أرسلت زوجها وحبيبها وأخاها تموز إلى العالم الأسفل، أو مثل ليليث التي تمردت وهربت من زوجها وأكلت أولادها.

مايا : لن يحدث هذا، فأنت نايا الجميلة والوديعة.. لقد كنت معك دائماً وسأكون بجانبك في أية حالة بعثت يا نايا.

نايا : إذن تعالي معي يا مايا لنقرأ بعض الدفاتر التي كتبناها معاً. قراءتها تمتعني جداً.

مايا : نعم، إنها ممتعة حقا، وهي التي توحّد بين روحينا.

نايا : ما رأيك أن نبدأ بدفتر عشتار؟

مايا : عشتار الأم الكبرى.. فلنبدأ به.

(تدخلان الغرفة. إظلام).

* * *

(دفاتر نايا)

تؤدي نايا الأدوار كما جاءت في دفاترها (أدوار: عشتار، دليلة، لونا، شجرة الدر) وهي بذلك تلخص وتشخص جوانب من رحلة المرأة عبر تاريخ البشرية.

صديقتها مايا تكون دائماً معها وباسمها نفسه «مايا»، محتفظة بشخصيتها الأساسية؛ فهي من طبيعة نارية قادرة على أن تعبر الأزمنة والأمكنة من غير تغير يذكر.

شاشة على المسرح لعرض بعض الشرائح الضوئية «السلايتات» حين الضرورة).

* * *

- دفتر عشتار -

(إضاءة)

عشتار تجلس على عرشها في كامل أبهتها وجلالها، تكلل رأسها بالتاج الذهبي، وتمسك بيدها الصولجان على شكل أفعى(*)، وتزين يديها بالحلي، وصدرَها بعقد من الأحجار الكريمة، وهي في شكلها تشبه منحوتاتها الأثرية: جمال في الوجه مع ملامح قاسية، مناطق الخصب من جسمها ضخمة وهي الصدر والثديان والحوض.

أمامها يقف زوجها تموز ومعه عصا الراعي، وعلى ظهره قوسه وجعبة سهامه، وهو يحمل غزالاً صغيراً صاده.

مايا في ثوب الريش تقف وراء عرش عشتار فاردة جناحين كبيرين من الريش.

تتدلى من سقف المسرح نجمة ثمانية كبيرة كأنها تظلل عشتار(**).

على الشاشة تنعكس صورة لإحدى نقش أو منحوتات عشتار الأثرية بكل جلالها، وأمامَها في معبدها يجلس المصلون لها ويرفعون أيديهم بالابتهال، ومنهم يصدر صوت الجوقة).

(*) الأفعى رمز لعشتار الخضراء روح الإنبات والخصوبة، وهي رمز لعشتار الشافية أيضاً.

(**) النجمة الثمانية في حضارة وادي الرافدين رمز لعشتار إلهة الحب والخصب، وهي نجمة الزهرة التي تظهر في السماء بعد الغروب.

عشتار: (تسجيلي مع الصدى)

أنا عشتار

وأنا إينانا

سيدة الكونين والثقلين

سيدة الفصول الأربعة

أنا الموت والحياة وخصب الطبيعة

والحب والجنس

وأنا الموت والحياة

وأنا الهلاك والدمار وسيدة الحروب

في الليل عاشقة وفي النهار مقاتلة

صوت الجوقة: (يأتي من بعيد) عشتار.. عشتار..

عشتار: أنا وَلدت نفسي ولم يلدني أحد

إليّ ينتسب العالم ولا أنتسب لأحد

أنا المرأة والرجل.. أنا الأنثى والذكر..

وأنا لست بأنثى أو ذكر(*).

صوت الجوقة: عشتار.. عشتار..

(*) إشارة إلى أنها الأم الكبرى قبل الانفصال إلى سالب وموجب/ أنثى وذكر.

عشتار: على رأسي وضعت تاج السهول

ومن محياي يَشِعُّ الألق والبهاء

بيدي أقبض على الصولجان اللازوردي

وزينت جيدي وصدري بالجواهر والأحجار الكريمة

صوت الجوقة: عشتار.. عشتار..

عشتار: وشحت جسدي بأثواب السيادة والسلطان

ومسحت وجهي بالزيت والطيوب

أنا عشتار..

سيدة الأكوان

وكل من فيها يسجد لي بإشارة من صولجاني

أنا البغي المقدسة

والعاهرة المعبودة

وأنا الأم الكبرى

اسجدوا لي أمنحكم الحياة والأمان.

(تشير بصولجانها)

(تتبدل الصورة على الشاشة وتعرض صورة لعشتار والناس أمامها في المعبد وهم ساجدون).

صوت الجوقة: عشتار.. عشتار.. امنحينا الحياة والأمان أيتها المقدسة والبغي المعبودة. عشتار..عشتار..

(يتردد النداء مع الصدى حتى يتلاشى الصوت تماما ويسود السكون وتظلم شاشة العرض. تموز يبقى واقفاً لا يسجد).

عشتار: **(يعود الأداء والصوت طبيعيين)** ما منعك أن تكون من الساجدين يا تموز؟

تموز : الزوج لا يسجد لزوجته، وإنما يضمها ويضاجعها في الفراش.

عشتار: ما حاجتي إلى الزوج وأنا الزوج والزوجة، وما أنت إلا راع لأغنامي وصائد للغزلان؟

مايا : **(تتكلم ولا تسمعها غير عشتار)** خففي من غلوائك يا عشتار، ولا تهيني زوجك فتدفعيه إلى الانتقام.

تموز : وكلمات الحب التي كنت ترددينها لي، هل نسيتها؟

عشتار: الحب والكره وجهان لي، ولا يدري أحد متى أحب ومتى أكره؟

تموز : أي من عشاقك يا عشتار لم ترمه في الهلاك؟ كان جلجامش محقاً حين رفض حبك ومعاشرتك وقتل ثورك السماوي أيتها العاهرة.

عشتار: وقد نكبْتُه بموت صديقه، ألا تخشى من انتقامي أيها الراعي.

تموز : لم أعد أخشى أي شيء. يا سيدتي، انتهى عصرك، عصر الأمومة، وشمسك على غروب، فوق الحائط مصفرة شاحبة. وسيمسك الراعي زمام الأمور في العالم.

مايا : كوني عاقلة ولا تدفعيه إلى الجنون يا عشتار. إذا صار الأمر في يده فسيدمر العالم.

عشتار: إذن، أنت تتحداني يا راعي الأغنام.

تموز : يا ذات المزاج المتقلب، أنا لا أتحداك ولكن السلطة تضيع منك كما تتسرب المياه من فروج الأصابع.

عشتار: ماذا تريد مني يا من كنت لي أخاً وحبيباً وزوجاً؟

تموز : أريدك أن تعودي إلى الفراش كما كنت، ومن الفراش تستطيعين أن تشاركي في حكم العالم. دعينا نتقاسم العالم يا عشتار.

عشتار: لقد فرِكْتك يا تموز. أحبك وأكرهك في آن واحد. سأحتفظ منك بالذكرى ولن أعود إلى الفراش.

تموز : عندما أدعوك إليَّ فأنا أخشى عليك. ألا تعلمين أن لك وجهين كما للقمر وجهان: وجه منير يحمل الحب والخصب والحياة، ووجه قاس متمرد ومعتم أسود يحمل الكراهية والموت والحروب. أنت عشتار وأنت ليليث في آن واحد.

عشتار: **(لمايا)** هل أنا كما وصفني يا صديقتي.

مايا : نعم فاحذري أن تعيشي بوجهك المعتم.

تموز : إذا تخليتِ عني ستعيشين بوجهك المعتم وحده، ستكونين ليليث، وتهيمين في البراري والفلوات، وتقترفين الشرور والآثام. سيفقد كل زوج زوجته، وكل خطيب خطيبته، وسينقرض الحب في العالم، وستخنقين الأطفال من قبل أن يولدوا. **(صمت)** عودي إلى الفراش يا عشتار، إنما خلقت المرأة للفراش. عودي كما كنت، وكوني الدفء والسكينة وفرح الأرض يا حبيبتي.

عشتار : لأنك تمردت علي يا تموز، أيها الزوج الحبيب فإنني سأمنح حبي وجسدي للسيد موت، وعليك أن تبارزه طول العام إلى أن تبرد الشمس وتنطفئ النجوم وينشق القمر.

أيها الابن الملكي تموز، يا أخي وزوجي صاحب الوجه الأجمل بين الوجوه.

نهايتك صارت قريبة، وقُدِّر عليك مصير بائس.

أيها الحبيب، الرجل الذي يسكن القلب،

لقد قدرت عليك مصيراً بائساً يا ذا الوجه الأجمل بين الوجوه(*).

(إظلام قصير)

* * *

(*) من خطاب إينانا (عشتار) لحبيبها دوموزي (تموز) حين تقرر موته وإرساله إلى العالم الأسفل.

(بقعة ضوء على تموز وهو ساجد يبتهل).

تموز : أبي الذي في الأعالي لقد أنهكني الصراع الطويل مع موت، السيدِ الذي يطلي وجهه بالقار الأسود، والذي تمده عشتار بالقوة، ولولا ذلك لتغلبت عليه وصرعته وملأت الأرض خضرة وجمالاً وسلاماً وربيعاً دائماً.

لقد أصبحتُ كخرقة بالية، وجسدي مثخن بالجراح. لقد استولى موت على الينابيع فما تنبض بقطرة واحدة أبلل بها ريقي، واختَزَن الطعام فما أجد رغيفاً واحداً أسد به رمقي، وهو يحاصرني بذؤبانه ومردته وزبانيته.

إن موت يا أبي يقوى عليَّ بحب ابنتك عشتار له. إن حبها يجعله جباراً قوياً، ولو لم تكن ابنتك عشتار معه لصرعته منذ زمن طويل.

أبي الذي في الأعالي

هاك ضلعاً من أضلاع صدري واصنع لي منه أماً وأختاً وزوجة حبيبة، طيّعة طيبة، تمنحني دفء الحياة والسلام، ولا تتمرد عليَّ في الفراش، حبها يمدني بالقوة في صراعي مع موت، امنحني امرأة تعمِّر لي الأرض قبل أن تملأها ذرية ليليث الشيطانة والوجه الآخر لابنتك عشتار..

أبي الذي في الأعالي،

امنحني الأمن والقوة والنصر على موت لأملأ لك الأرض أمناً وجمالاً وسعادة وسلاماً.

آمين.

(إظلام قصير)

* * *

(بقعة ضوء على عشتار ومايا، صوت رياح وأمواج البحر، التماعات ضوئية

وإضاءة المسرح خافتة).

عشتار: أين نحن الآن يا مايا؟

مايا : لقد قطعنا في رحلتنا هذه يا صديقتي أزمنة وأمكنة عديدة لا يمكن حصرها أو وصفها.

عشتار: ألازلت جميلة يا مايا أم أن الزمن الطويل قد ملأ وجهي بتجاعيد الشيخوخة؟

مايا : يا ذات الشباب الدائم وجهك لا تغضنه السنون وستبقين جميلة ما طلعت الشمس في الصباح وغربت في المساء، ولكن أين حبيبك موت؟

عشتار: لقد انفصلنا يا مايا، إنه يعمل الآن لحسابه الخاص. ولكن لماذا تسألين؟

مايا : لأن جثث القتلى والأموات ملأت الجبال والسهول. حبيبك يقضم أطراف الحياة وأرواح الناس، ويشعل الحروب، ويدمر المدن، بلا رحمة أو شفقة.

عشتار: لم أكن أريد هذا، ولم أدفعه إلى ذلك، كانت مهمته مقتصرة على مبارزة تموز، وكنت أعلم أن أحداً منهما لن ينتصر، سينتصر هذا مرة وذاك مرة، وهكذا تولد الحياة وتتجدد، ويعود الخصب من هذه الجدلية الأزلية.

مايا : ولكن العنف يجر العنف، والقتل يستدعي القتل، حتى تصبح الحياة لعبة موت.

عشتار: **هل كان عليَّ ألاّ أتخلى عن تموز؟**

مايا : لا تأسي على ما فات، ولا بد أن تسير الحياة إلى نهايتها المحتومة.

عشتار: كان لا بد أن أفعل ذلك. أحلامه كانت كبيرة وخطيرة. أصبح خطراً على مملكتي يا مايا.

مايا : ومع هذا فقد خسرت مملكتك يا عشتار.

عشتار: نعم خسرتها، لا أدري كيف انتزعها مني تموز.

مايا : وخسرت نفسك أيضاً يا عشتار، خسرت وجهك المنير.

عشتار: كلا، لم أخسر وجهي المنير نهائياً، مازلت أشرق وأولد كما يولد القمر بعد المحاق. مازلت عشتار الخضراء، عشتار الشافية.

مايا : هل أنت متأكدة من أنك لم تخسري شيئاً؟

عشتار : **(تصمت لحظة وكأنها تفكر)** ومن منا لا يخسر، المرء كل لحظة يخسر جانباً من عمره، لا بد أن يخسر المرء لتستمر الحياة. ولكن ما فعل تموز من بعدي؟

مايا : صنع له أبوه الذي في الأعالي امرأة من ضلعه أرادها أن تكون مطيعة وللفراش فقط.

عشتار : لعلها خففت من غلوائه وحبه للسيطرة والتملك، ولعلها كانت السبب في أن يحمل السعادة والأمن والسلام للناس كما كان يدّعي.

مايا : انظري ما فعل حبيبك تموز منذ أن انفصلْتِ عنه واستولى على مملكتك.

(إظلام قصير)

* * *

(بقعة ضوء على تموز في لباس عصري وعشيقته وخارطة للعالم على الطاولة أمامهما وهما يحتسيان الخمرة).

تموز : هذه الخمرة معتّقة رائعة، حمراء كعين الديك، قال فيها الشاعر:

صـحّت كعـين الـديك صـا   فيـةً وطـرفُ الـنجم أرمـد(*)

(*) البيت لإبراهيم الطباطبائي.

إيفا : لونها يعجبني.

تموز : ويعجبني أيضاً، أنها بلون الدم يا إيفا. **(ينظر إلى إيفا بشبق).**

إيفا : ما لك تنظر إلي هكذا، أحس بأنك تأكلني.. هل أنت سكران؟

تموز : يسكرني هذا الجسد، كم أنت شهية يا إيفا.

إيفا : أنت مهووس بالجنس.

تموز : **(يضحك)** الجنس هو التوأم الشقيق للدم والحرب والعنف.

إيفا : وماذا بعد؟

ماذا بعد الجنس والعنف والموت والصراعات الدموية؟

تموز : ليس هنالك من بعد.. لقد انتهى التاريخ عندي وحُسم الأمر يا إيفا.

كل شيء هالك إلا وجهي.

إيفا : إذن أنت قادر على كل شيء.

تموز : أنا المطلق.

إيفا : **(مازحة)** لقد أهدى سليمان إلى بلقيس عرشها في طرفة عين، ومادمت أنت قادراً على كل شيء فماذا ستهديني في عيد ميلادي.

تموز : وماذا تعطيني لقاء هديتي؟

إيفا : أعطيك متعة لا حدود لها.

تموز : ضعي إصبعك على أي مكان في هذه القرية الكبيرة فيكون ملكك.

(تغمض عينيها وتضع إصبعها على نقطة في الخارطة، تموز ينظر إلى المكان الذي أشارت إليه ويهتف) هيروشيما.. آه.. هيروشيما حبيبتي.

(صوت انفجار ذري مروع وعلى الشاشة تنعكس شريحة ضوئية لسحابة الفطر، أصوات بكاء أطفال ونحيب نساء).

(إظلام)

* * *

(إضاءة

نايا تجلس أمام باب دارها تقرأ في دفتر صغير بيدها وتسجل فيه بعض الكلمات، تنهض وتتناول كأساً زجاجياً)

نايا : سأرى إن كان الماء مقطوعاً أم أنه عاد.

(تتجه نحو صنبور الماء، تفتحه فينزل منه سائل أحمر، تتذوقه).

أوه .. هذا شاي بارد محلّى بالعسل، هذا من عمل مايا **(تنادي مازحة كما يفعل الأطفال)** اظهر وبان عليك الأمان.

(تظهر فجأة مايا في ثوب عادي أنيق وجميل وبجانبها أخوها الشاب في ثوب الريش).

مايا : جئتك بضيف يا نايا.

نايا : أهلاً بك وبمن معك.

مايا : هذا أخي الذي حدثتك عنه، اسمه جَنان، وقد جاء للتو من السفر ولا يزال في ثوب الريش.

نايا : أهلاً بك يا جنان **(تصافحه)** آسفة.. المكان خرب لا يليق بضيف عزيز علينا مثلك.

جنان: إنما يعمر المكان بأهله يا آنستي.. أنت جمال هذا المكان وقيمته الحقيقية، ألم تسمعي قول قيس الإنس صاحب ليلى العامرية والذي مر على ديار محبوبته وهي أطلال خربة.

نايا : هات أسمعني، لقد اشتقت لحديث الشعر ومطارحات الشعراء.

جنان:

أَمُرُّ على الديار ديارِ ليلى　　　أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُب الديار شغفْن قلبي　　　ولكن حُب من سَكَن الديارا

نايا : يحق لهذا المجنون بحب ليلى أن يقبِّل جدران دارها الخربة وهو القائل حين أزمع أهلها الارتحال بها.

كأن القلبَ ليلة قيل يُغدى　　　بليلى العامريةِ أو يُراح

قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتت　　　تعالجه وقد عَلِق الجناح

مايا : هيه.. لقد علق منكِ الجناح يا نايا.

نايا : لا تبعد بكِ الظنون. إنها مجرد محاورات شعرية.

مايا : تتطارحان الأشعار أمامي وتنسياني.. أنا هنا.

نايا : لم ننسك يا مايا، ولكنني منذ مدة طويلة وأنا أحلم بلقاء شاعر أتطارح معه القصيد. للأسف أنا أحفظ الشعر ولكنني لا أنظمه.

جنان: سأعلمك نظم الشعر يا نايا، الأمر بسيط إذا كانت لك أذن إيقاعية، وإذا لم تتوافر هذه فإنك تستطيعين أن تكتبي قصيدة النثر.

نايا : وأيهما أجمل في رأيك؟

جنان: جمال الشعر ليس بإيقاعه فحسب وإنما بصوره وأسلوبه وأفكاره وإيقاعاته الروحية الداخلية.

نايا : أنا أكتب الآن دفاتر المرأة، هي ليست بشعر، ولكنها جميلة ومفيدة، هل تريد أن تَطَّلع عليها.

جنان: بكل سرور.

مايا : ما الدفتر الذي ستعرضينه على جَنان يا نايا؟

نايا : دفتر دليلة.

مايا : **(مازحة)** دليلة والزيبق أم دليلة وشمشون أم..

نايا : بل دليلة التي أعرفها من مشاهداتي، ولعلي عشت شخصيتها في عصر من العصور.

مايا : ولعلي أيضاً كنت قرينة لك أيضاً.. افتحي دفتر دليلة يا نايا.

(نايا تفتح الدفتر الذي كانت تكتب فيه)

(إظلام قصير)

* * *

- دفتر دليلة -

(زوج دليلة أمام باب الدار في القرية يحتسي الشاي ويدخن، ويجانبه جاره القاصود (الشاعر المغني) يعزف على الربابة ويغني.

الزوج شعره طويل وله شاربان كبيران وذقن طويلة، يضع المشلح(*) على كتفيه كأنه أمير، وهو يجلس هكذا طول اليوم معتمداً على زوجته التي تعمل في الحقل).

القاصود :

أشـتكي لَـكْ مـن هـوى نُجـل ... يوسُفيّات المَهـا حُمـر الـشفاهْ
سـالبات للمــلا تُلْــع الرِّقــاب ... خُـــرّدات بـــالبيوتِ مْخفَّـــرات
عنبريـــاتُ الـــروائح والكمـــال ... فـي جمـال قايمـات قاعدات(**)

الزوج : أين هذه الفتاة التي لها هذه الأوصاف يا صديقي.

القاصود : للشعراء تصوراتهم وأحلامهم بالجمال يا صديقي.

الزوج : لم تعجبني هذه: في البيوت مخفّرات.

القاصود : ولماذا لا تعجبك؟

(*) كالعباءة وإنما من القماش الصوفي أو القطني.

(**) أبيات من السامري / لون شعري غنائي بدوي.

الزوج : المرأة يجب أن تنهكها بالعمل: في الحقل، في المصنع، في البيت، الرجل يحكم ويأمر والمرأة تعمل. المرأة يجب أن تبقى خادمة لا مخدومة.

القاصود: نحن الشعراء لنا رأي آخر: نتغزل بالمرأة، نمدحها ونصفها منعمة مرفهة مخدومة، وإلا فإن القصيدة تصبح ثقيلة ممجوجة، ومعتمة مرفوضة.

الزوج : هراء.

القاصود: وأزيدك فائدة، من محاسن الرجل أن يتذلل للمرأة.

الزوج : ومتى كان التذلل مكرمة؟

القاصود: لا يحمد التذلل في الشعر لغير المرأة، ألم تسمع قول الشاعر:

نحن قومٌ تذيبنا الأعينُ النُّجْلُ غيـــر أنـــا نُـــذيب الحديـــدا

الزوج : اسمع يا صاح: المرأة عليك أن تطأها لا أن تتغزل بها، إني أنصحك دع أخيلتك الشعرية ولا تأمن المرأة، ولا تعطها أسرارك، ولا تسمح لها بأن تقص شعرك.

القاصود : تقص شعري!؟

الزوج : نعم.. شمشون كان جباراً قوياً، وكان سر قوته في شعره، إلى أن أحب تلك الراقصة العاهرة دليلة التي أرسلها له أعداؤه فأغوته بجسدها حتى باح لها بسر

قوته وأن هذا السر يكمن في شعره. وقصت له شعره ففقد قوته وأوقعته في الأسر والذل والهلاك.

القاصود : **(مازحاً)** ولهذا أنت تطيل شعرك، هل أنت شمشون الجبار؟

الزوج : دعك من المزاح؟

القاصود : أنا لا أمزح، إذا غابت المرأة غابت الحياة والجمال، ولم يعد للشعر ولا للغناء مكان. ألا ترى بعضهم اليوم يتزنر بحزام ناسف ، ويفجر نفسه في المسجد أو في سوق شعبية فيقتل العشرات من الأبرياء ليدخل الجنة ويحظى بحورية من حورياتها السمراوات أو الشقراوات.

الزوج : نعم.. يحلم بحورية لا يتغزل بها أو يغني لها وينظم فيها الأشعار، وإنما ليقيم معها علاقة جنسية. إنه يضحي بنفسه وبغيره ليفوز بمتعة الجنس.. والجنس فقط.. لا وقت للغزل في الجنة؛ الغزل بضاعة المحروم، وباختصار المرأة للعمل والجنس فقط يا صاحبي.

القاصود : ألا يحق للمرأة أن تطلب ما يطلبه الرجل؟

الزوج : ماذا تقصد؟

القاصود : **(يضحك)** اسمع.. إنها أكثر من نكتة. قالت لي إحداهن مرة وهي فتاة فنانة جريئة: أنتم الرب يعدكم بحوريات

في الجنة للجنس والاستمتاع تتفكهون بهن وتنتقلون من واحدة إلى أخرى، ونحن النساء لماذا لا يعدنا بحور من الرجال في الجنة نتفكه بهم وننتقل من رجل إلى آخر؟.. حتى الجنة هي مملكة الذكور فقط!

الزوج : عليها اللعنة، ألم تصفعها على وجهها؟.

القاصود : لست بشمشون مثلك حتى أصفعها على وجهها .. أوه.. ها قد جاءت زوجتك.

(تقبل من بعيد زوجته دليلة، وهي قروية تحمل على رأسها صرة كبيرة فيها قش وأغصان للوقود، وفي يدها وعاء ماء بلاستيكي، وفي يدها الأخرى رضيع في لفافة ولدته للتو، وتعلق برأسها شرشفاً مثنياً ومرمياً على ظهرها فيه طفلها الصغير يمد رأسه من فرجة الشرشف).

الزوج : **(عابساً)** تأخرت اليوم يا مقصوفة الرقبة(*).

دليلة : كان لدي عمل كثير يا سيدي.

الزوج : وماذا عملت اليوم؟

دليلة : عملت في قطاف العنب، وجمعت القش والعيدان للوقود، وفلحت قطعة الأرض الشرقية الصغيرة، وجئت من النبع بهذا الماء النقي للشرب .. أف .. الحر شديد اليوم يا سيدي.

(*) تعبير شعبي في الملامة والتقريع.

الزوج : هذا جيد، وما هذا الذي تحملينه في يدك؟

دليلة : طفل ولدته اليوم في الحقل، ساعدتني في الولادة حاصودة تعمل بجانبي.

الزوج : صبي أم بنت؟

دليلة : صبي.

الزوج : الحمد لله .. لا أحب البنات.

دليلة : ماذا ستسميه يا سيدي.

الزوج : شمشون.

دليلة : الأول سميته على اسم أبيك، وهذا كنت أتوقع أن تسميه على اسم والدي.

الزوج : اخرسي وأسرعي وحضري لي الطعام.

دليلة : حاضر.

الزوج : ماذا؟

دليلة : حاضر يا سيدي.

(إظلام قصير وبقعة ضوء على مايا في ركن المسرح منتظرة وصول دليلة. تصل وتصبح تحت بقعة الضوء).

دليلة : **(مفاجأة)** أوه.. هكذا تنبثقين من تحت الأرض!؟

مايا : لا عليك يا دليلة.. منذ فترة لم نلتق.. أنت مشغولة دائماً.. هل أساعدك في حمل الأغراض؟

دليلة : كلا.. تعوّدت على ذلك.

مايا : اسمعي يا دليلة، أنا حزينة من أجلك، يجب أن تتمردي، أن تثوري على واقعك.

دليلة : ولماذا أثور؟

مايا : هذه عبودية. كيف تتحملين كل هذا الاستعباد..!؟

دليلة : في البداية تكون العبودية صعبة، ثم تصبح مقبولة، ثم تصبح في المرحلة الثالثة لذيذة. للعبودية طعم حرّيف(*) خاص ولذة محببة يا مايا.

مايا : **(مندهشة)** طعم خاص.. ولذة محببة..!

دليلة : نعم، لا تضاهيها سوى لذة المضاجعة حين تصل المرأة إلى منتهى النشوة.

مايا : هذا شذوذ يا دليلة، لو أن الناس جميعاً كانوا على ذلك فقط لفقدت الحياة عنصرها الدرامي، وما عادت جديرة بالاستمرار. إن أمنا عشتار خسرت مملكتها ولكنها لم تتخل عن طموحها ومحاولاتها باستعادتها، غريزة السيطرة والتملك لا يمكن أن تموت.

دليلة : اسمعي يا مايا. لكل طريقته في الحاكمية والتملك، وأنا لي طريقتي في تملكي لزوجي وللأشياء. هو يحسب أنه

(*) الحِرِّيف عند العامة هو الطعم الذي فيه نكهة حموضة خفيفة حادة لذيذة.

المنتصر والحاكم المسيطر، ولكنه يا مايا يخسر روح الأشياء، وهذه هي الملكية الحقيقية.

مايا : ماذا تقصدين بروح الأشياء؟

دليلة : النبع الذي أجلب منه الماء، الأشجار التي أقلِّمها، الحقل الذي أفلحه، الزرع الذي أحصده، الطفل الذي ألده.. جميع الأشياء التي أعملها وأعيشها من الصباح إلى المساء لها أرواح لطيفة خفيفة تبادلني وأبادلها الحب، تحادثني وأحادثها، تحبني وأحبها، إنها ملكي، فأنا أمتلك روح الأشياء وهذا ما لا يفهمه زوجي ولا يستطيع الحصول عليه لأن روحه كتيمة لا تتعامل مع الأرواح الخفيفة، إنه الخاسر دوماً، وهذا يحزنني.

قد تسمين هذه الأشياء عبودية. فلتسمها ما شئت، ولكنها مملكتي وحريتي، إن لي عالمي الخاص يا مايا وأنا مليكته.

والآن دعيني أذهب فقد تأخرت وعليَّ أن أحمم الولد وأطبخ الطعام لزوجي.

(تخرج من دائرة الضوء وتبقى مايا مستغربة حائرة).

(إظلام)

* * *

(إضاءة

تصل نايا من الخارج وتدخل حاملة بعض أكياس الطعام وزجاجة ماء، وتعلق على كتفها محفظتها النسائية)

نايا : من الصعب الحصول على الماء والطعام في ظل هذه الحرب الملعونة.

يبدو واضحاً إقحام موضوع الحرب بين الحين والآخر.

(تضع ما تحمله أمام باب الدار، تتطلع حولها وتفاجأ بأن الورد بكل أنواعه والزهور والزنابق قد نبتت في أنحاء متعددة من باحة الدار).

في الصباح حين خرجت لم تكن هنالك ورود ولا أزهار، وها أنذا أعود فأراها قد نبتت في بضع ساعات. لا بد أن هذا من فعل مايا. **(تنادي)** مايا.. أين أنت؟ لماذا تختبئين؟

(يبرز فجأة جنان في ثوب عادي أنيق وهو يعلق آلة الكمان أو الربابة على كتفه).

جَنان: هل أعجبتك الورود يا نايا؟

نايا : إذن هو أنت من فعل هذا.

جَنان: نعم.. هل أعجبتك؟

نايا : جداً.. شكراً يا جنان.

جَنان: لم أجد أفضل منها هدية أقدمها لك يا نايا.

نايا : أنا أحب الورود جداً.. هذا البيت قبل أن يصيبه الدمار كانت فيه مساكب رائعة للورود والزهور، كنت أسقيها بنفسي وأعتني بها.

جَنان: لا يعادل الورود والزهور في قيمتها ورمزها وجمالها سوى الكلمة الطيبة أو قصيدة شعر.

نايا : وأين هي القصيدة.

جَنان: ستكون لك أجمل قصيدة.

نايا : مغنّاة؟

جَنان: ومغنّاة أيضاً، وهذا كماني حاضر.

(يتناول الكمان يجلسان متقابلين ويبدأ بالعزف)

جَنان: **(يغني)**

وجهكْ جنة الفردوس جنّاي **(باعث على الجنون)**

شجرْها في أوانه ثمرْ جنّاي **(ثمر الجنة)**

إن أكل منها إنسي أو أكل جنّاي **(جني)**

وروحه مفارِقة يرجع طياب **(حيّاً معافى)**

مايا : **(تدخل وتصفق مستحسنة الأداء)** أحسنت يا جنان.. يا سلام.. تتغازلان من وراء ظهري.. هذه خيانة.

جَنان: وما أجملها من خيانة.

مايا : نايا فتاة مرهفة يا جنان، أَعرفها جيداً فهي تِرْبي وشقيقتي. وإذا كانت أشعارك وأغانيك من روحك فلا بد لنايا أن تلبس الريش ذات يوم.

جَنان: يسعدني أن تفعل ذلك.

نايا : لا يشطح بكما الخيال بعيداً يا مايا، فأنا وأنتما من كوكبين مختلفين.

مايا : تقصدين من عالمين مختلفين.. الحب يجمع العوالم كلها.

جَنان: وبالعشق تسبح الشموس والنجوم والكواكب وتدور في أفلاكها.

مايا : كم بقي من دفاترك يا نايا؟

نايا : بقي الكثير

(تخرج من محفظتها دفاتر صغيرة)

مايا : وماذا ستعرضين اليوم؟

نايا : **(تستعرض الدفاتر)** لدي دفتر كليوباترا، ودفتر عبلة صاحبة عنترة، ودفتر ملكة مصر شجرة الدر، ودفتر لونا، ودفاتر أخرى لأسرى وفتيات سبيات يباعون جميعاً في سوق النخاسة..

جَنان: أحسب أن تجارة الرقيق قد انقرضت لديكم.

نايا : كلا لم تنقرض يا جنان، لقد عادت من جديد مع انتشار الفوضى والحروب القذرة والفكر الظلامي الأسود، مما تنطبق عليه الآية الكريمة: «قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب».

مايا : حسن، اقرئي لنا من دفتر واحدة من هذه السبايا

* * *

نايا : **(تختار دفتراً)** هذا دفتر لونا.

مايا : يبدو أنها أثيرة لديك، اقرئي لنا من دفتر لونا.

(إظلام)

- دفتر لونا -

(إضاءة شاحبة، خافتة، متراجفة، أصوات رصاص ورجال مقنعون يندفعون ولهم رؤوس الغوريلا، يرتدون ثياباً سوداً من جلود الحيوانات، وهي قصيرة وغير أنيقة بحيث تعطيهم مظهر البدائيين المتوحشين، لهم لحىً كثة طويلة، يحملون في أيديهم الحراب والسواطير، يلاحقون أطفالاً ونساء وشباناً صغاراً يحاولون القبض عليهم وجرهم خارج المسرح، يطلقون صرخات همجية.

لا يبقى على خشبة المسرح سوى الفتاة لونا وثلاثة رجال سود يرمونها أرضاً ويربطون يديها ثم يسحبونها خارجاً)

(إظلام)

* * *

(بقعة ضوء على لونا في العيادة النفسية نصف ممددة على سرير وبجانبها طاولة صغيرة وعليها أصيص فيه زهور ذابلة والطبيب يتابع جلسة المعالجة)

الطبيب: هل أنت متأكدة أن لهم رؤوس الغوريلا، ويلبسون ثياب المتوحشين، ولهم لحى كثة طويلة، وفي أيديهم الحراب والسواطير؟

لونا : (بصوت ضعيف ومريض) نعم.. أو هكذا خُيِّل إليَّ يا دكتور. **(تبحث عن شيء بعينيها).**

الطبيب: لعلك كنت تُرينيْهِم بعين العين لا بالعين الباصرة؟

لونا : ربما، ولكني رأيتهم كما وصفت **(تبحث عن شيء بعينيها).**

الطبيب: ماذا تريدين يا لونا؟

لونا : ماء.

الطبيب: حاضر **(يناولها كأس ماء، تقربه من فمها ثم تبعده خائفة)** ماذا يا لونا، لماذا لم تشربي؟

لونا : في الكأس صراصير سود.

الطبيب: لا.. لا يوجد شيء، أنت تتخيلين.

لونا : **(تشير بإصبعها إلى الكأس)**، الصراصير في الكأس تحاول الصعود إلى أعلى.

الطبيب: حسن، سأحضر لك زجاجة ماء مختومة.

(يناولها الزجاجة)

لونا : شكراً لم أعد عطشى.

الطبيب: هل تظهر لك الصراصير في الماء فقط؟

لونا : وعندما آكل أيضاً تخرج من صحون الطعام وتملأ الطاولة.

الطبيب: وفي الكتب؟ أنت تقرئين كثيراً وتقرضين الشعر.

لونا : لم يحدث هذا إلا عندما أعطوني بعض كتبهم وأجبروني على قراءتها وحفظها. قالوا بأني كافرة وأنني بحاجة إلى

دورة تثقيف وتأهيل. عندما كنت أفتح الكتاب كانت الكلمات تنفلت من الأسطر وتصير صراصير سوداً.

الطبيب : حسن، دعينا من هذا. هل تعلمين شيئاً عن عائلتك يا لونا؟

لونا : لا أعلم الكثير. أبي قتلوه أمام عينيّ، وأمي باعوها بثمن بخس، وأخي ربطوا برجله صخرة وألقوه في النهر، ولا أعرف ما حل بأعمامي وأخوالي وعائلاتهم.

الطبيب: (يعرض أمامها لوحة تشكيلية) هل تعرفين هذه اللوحة؟

لونا : هذه لوحة رسمتها واشتركت بها في معرض الربيع وحصلت على الجائزة الثانية.

الطبيب: أنت فنانة موهوبة يا لونا.

لونا : كنت على وشك أن أقيم معرضاً فردياً. أعددت اللوحات، ثم حصل ما حصل.

الطبيب: حاولي أن تنسي، ما فات مات **(يبسط جانباً من صحيفة يومية ويقرأ)**.

قلبي ينبض بحب الحياة

قلبي يسع العالم ولكن العالم لا يسعني

قلبي بحر بلا شواطئ

من يكره البحر

سوى جاهل أو شرير؟

لونا : هذه آخر قصيدة كتبتها.

الطبيب: شعرك جميل يا لونا.

لونا : عندما جرّوني إلى كهفهم الأسود وقبل أن يغتصبوني قالوا لي: وتكتبين الشعر يا كافرة. أنت غاوية. أنتم الشعراء المفسدون في الأرض عليكم اللعنة.

الطبيب: وهل اغتصبوك؟

لونا : نعم، كانوا ثلاثة، وكنت خائفة أرتجف. ولكنني لم أبك، كنت أنظر إليهم باشمئزاز وازدراء ولا أتكلم، جسدي تبلّد، خرجت روحي من جسدي فبقي على السرير جثة هامدة، أما روحي فقد حلقت فوق جسدي تراقب ما يحدث وكانت خفيفة نقية عطرة أشم رائحتها الشذية.

(إظلام)

* * *

(إنارة، الطبيب يتابع جلسته)

الطبيب: لقد قلتها بنفسك يا لونا، انفصلت روحك عن جسدك، وحلقت تراقب ما يحدث، وكانت نقية عطرة.. أترين..؟ إنهم لم يغتصبوك، لقد توهّموا، الروح هي الجوهر الخالد والجسم عَرَض، الروح لا تغتصب.

لونا : شكراً دكتور، أنت تريد أن تحمل السلوان إلى قلبي لأتابع الحياة، ولكنني أعتقد أنني أودع الحياة.

الطبيب: فلتكن روحك نضرة قوية يا لونا.

لونا : روحي زهرة ذابلة بلا عطر يا حكيم.

الطبيب : بالعكس إني لأشم الآن شذا روحك العطرة. كوني قوية ولا داعي للتشاؤم، ها أنت قد عدت إلينا حيث الأمان والطمأنينة.

لونا : نعم، عدت، ولكن تلك الصور لا يمكن أن تمحى من الذاكرة. أنا أشكر ذلك الرجل الذي أشفق عليّ واشتراني بماله ثم أطلق سراحي وحررني وأرسلني إلى هنا.

الطبيب: لا يعدم المرء أن يجد أناساً خيّرين.

لونا : صحيح، ولكنهم قِلَّة. أنتَ لم تتعرض لمثل هذا الإذلال، أن تقف في سوق النخاسين على مصطبة العرض يعرضونك للبيع في المزاد.

الطبيب: دعينا نستعرض هذا المشهد.

لونا : لا أستطيع، أحسب أنني سأهلك بعده.

الطبيب: بالعكس، استحضاره هو الدواء الشافي لنفيه من الفكر والذاكرة، هذا الاستحضار بمثابة إعدام له وشفاء لك من آثاره.

لونا : بل هو إعدام لي.

الطبيب : لا بد من استحضار المشهد، هذا جزء أساسي في العلاج.

* * *

(إضاءة. في سوق النخاسين وقد انعكست على الشاشة شريحة ضوئية للوحة كبيرة كتب فيها بالألوان:

أثمان الأرقاء والسبايا

الطفل دون العاشرة٤٠ $ – الطفل فوق العاشرة ٨٠ $ – الفتاة العانس١٠٠ $ – الأرملة٩٠ $ – الفتيات الجميلات الفاتنات: بالمزاد.

على مصطبة البيع تقف لونا معروضة للبيع وحولها الرجال الثلاثة كما في المشهد السابق وبأيديهم الحراب والبلطات والطبل.

تسمع موسيقى صاخبة جداً كأنها آتية من صالة ديسكو).

أصوات الديسكو: هالي غالي.. تشا تشا تشا **(أو غيرها من الأغنيات الراقصة الصاخبة جداً).**

(خبطة قدم على الأرض ويسود الصمت ويتوقف الرجال المقتعون الثلاثة عن الرقص والدوران حول لونا، ويعلو صوت المنادي التسجيلي).

المنادي : (صوت تسجيلي) وصل المزاد إلى مئتي دولار. فتاة كافرة جميلة، فنانة وشاعرة. وتجيد الطبخ والتنظيف.. من يزيد؟

أصوات الديسكو: هالي كالي.. تشا تشا تشا.

(خبطة قدم على الأرض ويسود الصمت ويعلو صوت المنادي التسجيلي).

صوت المنادي: وصل المزاد إلى ثلاثمئة دولار.. من يزيد؟ جسم ناعم كالحرير، عيون عسلية، خدود وردية، وهي في الفراش شهية.. من يزيد؟

(أصوات ويعود صخب الديسكو من جديد).

أصوات الديسكو: هالي كالي.. تشا تشا تشا

(خبطة قدم على الأرض ويسود الصمت ويعلو صوت المنادي التسجيلي).

صوت المنادي: أرسى المزاد على أربعمئة دولار.. التسليم فوري ومبروك للفائز بهذه الجارية الثمينة.

(أحد الرجال الثلاثة يضع الطوق الموصول بحبل طويل في رقبتها ويجرها خارج المسرح).

(إظلام)

* * *

(إضاءة على عيادة الطبيب وهو يتابع المعالجة).

الطبيب: أعرف أنها كانت أياماً صعبة يا لونا، ولكن الإنسان قادر على النسيان والتكيف من جديد، لاحظي أن كلمة إنسان مشتقة من النسيان. ولولا النسيان لانفجر الدماغ بما يختزن من معلومات وأحداث.

(لونا لا ترد)

تمر بي حالات كثيرة أعالجها لكن حالتك هي الأصعب بلا شك، ولكنها ليست مستحيلة، وأنا متأكد من نجاح المعالجة في النهاية.

(لونا لا ترد)

لا يهمكِ أمر هؤلاء يجب أن تَنسيهم، إنهم مجرد غربان سود، والغراب لا صوته حسن، ولا لحمه يؤكل، ولا شكله يبعث على السرور.

(لونا لا ترد)

إنهم باسم آلهتهم التي يعبدونها يحاصرون المدن والقرى ويمنعون عن أهلها الطعام والماء حتى تسود المجاعة ويموت الناس على الأرصفة.

(لونا لا ترد)

يقول ضعفاء الإيمان: إن الله لم يعد يستجيب إلى دعاء البشر فهو مشغول بأمور أخرى، وقد طالت المعاناة. أستغفر الله فهذا تجديف، وإن الشمس مهما طال الليل لا بد أن تشرق ويطلع نهار جديد فيه نهاية لآلام الناس.

(لونا لا ترد)

أرجو أن تبعث كلمتي هذه الراحة في نفسك.

هل تريدين أن تضيفي شيئاً قبل أن ننهي الجلسة؟

(لونا لا ترد)

لونا.. أنا أكلمك يا لونا

(ينحني عليها وينظر في عينيها فيراهما جامدتين، يفحص نبضها فيتأكد أنها ميتة، يغلق لها عينيها ويسحب الشرشف الأبيض بهدوء ويغطي جسمها ورأسها ثم يخرج من غير أي تعبير على وجهه).

(إظلام قصير ثم إضاءة)

(تدخل مايا بثوب الريش تحمل طاقة زهر وكتاباً ذا غلاف ذهبي اللون، ترمي بالزهور الذابلة في سلة المهملات وتضع الزهور الجديدة في الأصيص بجانبها، ترفع الغطاء عن وجه لونا، تضع الكتاب الذهبي على الوسادة بجانب رأسها، تطبع على جبينها قبلة).

مايا: وداعاً لونا.. أيتها القدّيسة.

(تجلس بجانبها وتنحدر من عينيها دمعتان).

* * *

(إضاءة)

(نايا تحمل قفصاً فيه بلبل ولكنه لا يغرد، تعلقه على الجدار تأخذ إبريق الماء لتسقي به أصص الزهر فتصدر عن الإبريق موسيقى لطيفة، تتعجب، تنقطع الموسيقى وتلمس شجرة الزينة في الأصيص وهي تسقيها فتصدر عنها موسيقى أخرى لطيفة، تندهش، تلمس الزهور في الأصيص الآخر وهي تسقيها فتصدر عنها موسيقى وثرثرات ناعمة كأنها تتحاور. تضع إبريق السقاية جانباً وتخاطب مايا).

نايا : هذا من فعل مايا. **(تنادي)** مايا.. كفاك لعباً، اظهري.. ما هذا الذي تفعلينه؟

مايا : **(تطل من نافذة البيت)** وهل عملت شيئاً خاطئاً؟

نايا : كلا.. ولكن سيأتي يوم، وبسبب لعبك هذا، لا أميز فيه بين الحقيقة والوهم.

مايا : هذا ليس وهماً يا نايا. كل شيء في هذا الكون تصدر عنه موسيقا خاصة به: الأواني.. الملابس.. الأزهار.. الأشجار.. حتى الكواكب والأجرام لها موسيقاها وثرثراتها ولكنكم لا تسمعونها.

نايا : وكيف سمعتُها الآن؟

مايا : من خلال وجودي وإرادتي.

نايا : إذن سماع أصوات هذه الأشياء مرتبط بك.

مايا : أنا لم أقل ذلك، يمكن للمرء أيضاً إذا تخفف من غسقه الكثيف وحلقت روحه في فضاء النار والنور أن يسمع لغات الكائنات.

نايا : ولهذا أنتم تروننا ولا نراكم، وتسمعوننا ولا نسمعكم.

مايا : هل زعلت؟ أنا أتحدث بشكل علمي وحسب الطبائع المتنوعة التي خُلِقت منها الكائنات.

نايا : أنا لم أزعل ولكنني أفكر، أنا أسمع الآن على الأقل في هذه الساعة جميع الأصوات ولا أسمع صوت البلبل الذي كان يؤنسني في وحدتي.

مايا : ولماذا لا يغرد.

نايا : منذ علا صوت الزلازل والمدافع والانفجارات صمت هذا البلبل.

مايا : سيعود إلى التغريد، لحظة سأحضر وأكلمه لعله يعود إلى التغريد.

(تغادر مايا النافذة وتنزل إلى باحة الدار وتهمس في أذن البلبل فيبدأ التغريد).

نايا : أوه.. هذا أمر عجب، كيف فعلت ذلك، وأنا التي أعتني به رفض الاستجابة إلى رجائي.

مايا : ليس أمراً عجباً، الملك سليمان من قبل عُلِّم منطق الطير فكان يحادث الطيور ويأمرها بما يريد، وكان يسمع لغة النمل.

نايا : هذه منحة إلهية يخص بها الله بعضهم.

مايا : صحيح، لكن العلماء ينظرون إليها من الناحية العلمية ويرون أن لكل حيوان سماته أو خصوصيته اللغوية وطبقاتها الصوتية، وهم يحاولون التعرف عليها وترجمتها. أترين أن ما عملته مع البلبل ليس بمعجزة تستدعي العجب.

نايا : مهما يكن فهذا عمل جميل منك يا مايا.

مايا : أردت أن أبعث السرور في قلبك في هذه الأيام العصيبة.

نايا : شكراً يا صديقتي. وأين أخوك جَنان، لماذا لم يحضر معك؟

مايا : لبس ثوب الريش وسافر، إنه الآن في إحدى جزر المحيط الهادي غير المأهولة.

نايا : في المرة السابقة ملأ لي البيت بالورود والزهور.

مايا : إنه يحبك يا نايا، وقد طلب مني أن أعرف رأيك.

نايا : لا شك أنه شاب فنان موهوب ومحبوب، لا يمكن للمرء إلا أن يحبه، ولكن يا مايا نحن من عالمين مختلفين، الأسماك لا تستطيع أن تعيش على اليابسة، والطيور لا تستطيع أن تعيش في البحر داخل الماء، وما تفكرين به لا وجود له إلا في الحكايات الشعبية. **(تضع مايا أمامها علبة فاخرة)** ما هذا يا مايا؟

مايا : أنت تصعِّبين الأمور، وهي غير مستحيلة. قبل أن يسافر جنان ترك لك ثوب الريش هذا، تستطيعين متى شئت أن ترتديه وتطيري إليه أو إلى أي مكان آخر، وليس من الضروري أن تلبسيه دائماً، حاولي أن تجربيه.من كان يتصور أن الإنسان سيأتي عليه يوم يطير في السماء ويسافر إلى القمر؟ فقط عليك أن تجربيه.

(تقدم لها العلبة وفيها الثوب).

نايا : شكراً، ربما أرتديه ونذهب معا في زيارة له فقط لأطلع على عوالمه وأبتعد عن هذه الحرب الجهنمية.

مايا : منذ أن خسرت المرأة مملكتها، وذهب المجتمع الأمومي، وساد الرجل والمجتمع الذكوري اندلعت هذه الحروب وساد العنف والقتل والحصار والتجويع وجميع أشكال الرق والاستعباد في صيغها القديمة والجديدة، وفتحت أسواق النخاسة من جديد.

نايا : وما كان عمل المرأة في ذلك المجتمع؟

مايا : كانت هي الحاكمة الفعلية في البيت والمجتمع، تقود الجميع إلى السلام والطمأنينة والفرح، ولا تسمح بأي نزاعات يمكن أن تحدث. وكان الأبناء ينتسبون إليها وليس إلى الرجل، وفي فجر مملكتها كان الرجل يقوم بمهمة الصيد ليعود بالغذاء،

وأما هي فكانت تستنبت النباتات في الحقل، وتكتشف القمح وتزرعه، وتدجن بعض الحيوانات وتربيها في المنزل، وتجفف بعض الخضار للشتاء، كان مجتمعاً رخيّاً هنيّاً.

نايا : ثم جاء زمن كان عليها من جديد أن تستجدي حقوقها من الرجل.

مايا : أجل ونشأت المنظمات التي تدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها، وتأسست الاتحادات النسائية في العالم.

نايا : لو أن المرأة تستعيد مملكتها وتتخلص من وباء العنف والقتل والحروب التي حملها الرجل معه.

مايا : هناك محاولات عديدة في التاريخ، ولكن المشكلة أن المرأة تستخدم أساليب الرجل نفسها لاستعادة مملكتها أو في ممارستها للحكم فلا تنجح. ومن أمثلة ذلك:كيلوباترا ملكة مصر، وزنوبيا ملكة تدمر، وشجرة الدر سلطانة مصر.

نايا : شجرة الدر! دفترها عندي.

مايا : حسن، اقرئي لنا من دفتر شجرة الدر، هذه المرأة التي أرادت أن تسترجع مملكة المرأة فخسرت المملكة وخسرت حياتها.

(إظلام)

- دفتر شجرة الدر -

(بقعة ضوء على الراوي يعلق كشكولاً على كتفه فيه كتب ومخطوطات وأشياء أخرى. يتناول من الكشكول كتاباً ثم يعيده، يتناول مخطوطة ليقرأ منها).

الراوي: نحن الآن في عام ١٢٤٩م ٦٤٨هـ وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب في الشام يحارب الملوك الأيوبيين في نزاعات مستمرة على السلطة والبلاد، وزوجته شجرة الدر في القاهرة تنوب عنه في الحكم وتشاركه مهمات إدارة البلاد.

الصليبيون في الساحل يحتلون المدن والقرى، وتصل الأنباء بنزول لويس التاسع ملك فرنسا في بر مصر في حملة صليبية سابعة. ويعود السلطان إلى مصر للدفاع عنها، ويتحصن في المنصورة، وتسقط دمياط من غير قتال بسبب هرب حاميتها، ويتهيأ الفرنجة للزحف على القاهرة، وفي هذه الأيام السوداء يموت السلطان وتتحمل زوجته الخوارزمية شجرة الدر مسؤولية الحكم والدفاع.

* * *

(العرش السلطاني خالٍ، وشجرة الدر تسير جيئة وذهاباً وهي تفكر، ووصيفتها مايا ترتب بعض الزهور في أصيص).

شجرة الدر : متى وصلتِ يا مايا؟

مايا: وصلت الآن.

شجرة الدر : وهل جرى كل شيء كما طلبت؟

مايا : أجل يا مولاتي. حملنا جثمان السلطان في مركب إلى القاهرة ووضعناه في جزيرة الروضة.

شجرة الدر : وما هذا الثوب الذي تلبسينه.

مايا : **(تبتسم)** هذا ثوب الريش أرتديه لإنجاز المهمات السريعة.

شجرة الدر : إنها فترة عصيبة يا مايا.

مايا : وأنت أهل لها، فقد تمرست في الحكم مع زوجك السلطان الراحل.

شجرة الدر : صحيح، ولكن الوضع الآن حرج جداً، ولا بد أن يكون أحد بجانبي.

مايا : اعذريني يا مولاتي، لقد عرفت ذلك فأرسلت وراء قائد الجيش المصري الأمير فخر الدين يوسف ورئيس القصر السلطاني الطواشي جمال الدين محسن. وقد وصل الأمير فخر الدين يوسف وهو في الباب.

شجرة الدر : دعيه يدخل يا مايا. **(تخرج مايا).**

هذه الفتاة أمرها محيِّر، تارة تقول إن السلطان قد اشتراها وأهداها لي وأنا لا أذكر ذلك، وتارة أخرى تقول إنني اشتريتها عندما كان السلطان سجيناً في الكرك ثم خرج من السجن ليتولى عرش مصر وأنا لا أذكر ذلك أيضاً. ولكنها فتاة ذكية ومخلصة ومدهشة، تأتي بأمور عجيبة فإما أنها وليّة من أولياء الله أو أنها فتاة من الجن.

(يدخل الأمير فخر الدين).

فخر الدين : السلام على مولاتي عصمة الدين أم خليل شجرة الدر.

شجرة الدر: وعليك السلام يا فخر الدين. لقد أرسلت في طلبك لأمر هام.

فخر الدين : وما هذا الأمر يا مولاتي.

شجرة الدر : تعلم أن السلطان مريض.

فخر الدين : أعلم ذلك، شفاه الله.

شجرة الدر : لقد توفّاه الله، ولا راد لقضائه.

فخر الدين : أحقاً ما تقولين ؟

شجرة الدر : أجل ولا وقت للحزن، فالفرنجة في دمياط، ويجب أن نخفي أمر وفاة السلطان لئلا يثبِّط ذلك من عزيمة الجند ويضعف معنوياتهم، وقد أرسلت جثمانه خفية إلى القاهرة.

فخر الدين: رأي صائب يا مولاتي، ولكن كيف نسيِّر الأمور والسلطان ميت؟

شجرة الدر: لقد ترك لي أوراقاً وقعها قبل أن يموت سنستخدمها أنا ورئيس القصر السلطاني جمال الدين محسن في إصدار الأوامر، وقد أرسلت زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار إلى حصن كيفا كي يستدعي ابنه تورانشاه ليحكم مصر بعد أبيه، وأخذت العهد على المماليك بمبايعته ولياً للعهد.

فخر الدين: هذا عمل جيد يا مولاتي، واسمحي لي أن أعود إلى جبهة القتال فالإفرنج يقومون باستعدادات مريبة. ومكانك الآن في المنصورة آمن.

شجرة الدر: ليس هنالك من مكان آمن والعدو على أرض مصر. اذهب في رعاية الله.

(يخرج فخر الدين وتدخل مايا).

مايا : يا مولاتي، قلبي يحدثني بأن النصر قريب.

شجرة الدر: وهل تقرئين الغيب، موقفنا صعب جداً؟ حدثيني يا مايا عن زنوبيا ملكة تدمر.

مايا : أنا أعرفها جيداً لقد رافقتها في محنتها.

شجرة الدر: رافقتها! أنت تهذين يا مايا.

مايا : **(مرتبكة)** عفواً، أقصد أنني قرأت عنها. كان طموحها أكبر من إمكانياتها.

شجرة الدر: كان من الجنون أن تتحدى روما والإمبراطور القوي أورليان.

مايا : كان طموحها أكبر من الاستقلال بمملكة وسط البادية، كان طموحها أن تعيد مملكة المرأة لتسود العالم من جديد.

شجرة الدر: وهل تظنين أنني أقل طموحاً منها؟

مايا : أوه.. مولاتي.. في مثل هذا الطموح كانت مصارع المرأة.. آه.. لقد نسيت أن أخبرك أن الأمير ركن الدين بيبرس بالباب ينتظر.

شجرة الدر: **(فرحة)** أوه.. بيبرس.. رفيق الرق والعتق.. أدخليه يا مايا.

(تخرج مايا، وتقف شجرة الدر أمام المرآة وتصلح من هندامها وشعرها. يدخل الأمير ركن الدين بيبرس).

بيبرس : السلام على مولاتي عصمة الدين أم خليل شجرة الدر.

شجرة الدر : وعليك السلام يا بيبرس، كيف حالك ، ومنذ متى لم نلتق.

بيبرس : منذ أن أعتَقَنا السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

شجرة الدر: عليه رحمة الله.

بيبرس : إذن فقد مات السلطان كما وردني الخبر ولم أصدق.

شجرة الدر: نعم.. تعلم أنه مريض، وقد أمرت بأن يبقى الأمر سراً لئلا يطمع فينا الفرنجة وتفتر عزيمة الجند.

بيبرس : أحسنت صنعاً يا مولاتي.

شجرة الدر : نحن رفيقا درب واحد، كنا مع نجم الدين قبل أن يصير سلطاناً، وخصَّنا برعايته وأعتقنا معاً، وكان بيننا مودة.

بيبرس : بل أكثر من ذلك يا مولاتي.

شجرة الدر: عواطفنا واحدة، ولكن فلنحترم ذكرى الرجل الصالح الذي جعل مني زوجة ومنك أميراً. وأنا التي رافقته في سجنه في الكرك، وأنت الذي بقيت مخلصاً له.

بيبرس : وها أنذا مخلص له حياً وميتاً ومخلص لزوجته من بعده.

شجرة الدر : هذا ما كنت أريده. يا بيبرس أنت معروف برأيك الصائب في الأمور الحربية، ونحن مقبلون على أيام شديدة.

بيبرس : بماذا تأمرني سيدتي؟

شجرة الدر: أريد خطة تفاجئ العدو وتحقق نصراً حاسماً.

بيبرس : لقد فكرت في الموقف جيداً يا مولاتي، ولديَّ خطة آمل أن تحوز رضاك.

شجرة الدر: كلي آذان صاغية، هات ما عندك.

بيبرس : إن العدو يا سيدتي أفرحه ما حدث بدمياط حيث دخلها خالية وبلا قتال وقد أعدم السلطان بعض قادة العربات لجبنهم وهربهم، ولهذا فإن العدو يعتقد بأنه يستطيع أن يحصل على المنصورة بالطريقة نفسها في اندفاعه نحو القاهرة، وأن أهل المنصورة وعساكرنا سيخلونها قبل وصول الفرنجة ليتمكنوا من الدفاع عن القاهرة؛ فهو يعتقد أن المعركة الكبرى ستكون على أسوار القاهرة، أتوقع هجوماً قريباً للعدو وخاصَّةً وأن أحد أصحاب العربات الهاربين سرّب إلى العدو بأن السلطان قد مات، ولهذا سآمر بأن يختبئ العساكر في المنصورة ، ويلزم أهلها السكون التام حتى تبدو خالية من أهلها، فإذا دخل الفرنجة أغلقنا الأبواب وحاربناهم في الأزقة والحارات وفوق الأسطحة. فهل توافقين على هذا الرأي؟

شجرة الدر: أنا موافقة وسأبلغ قائد الجيش بالتزام الخطة.. وفقك الله يا ركن الدين .. يا صديق الدرب.

بيبرس : وسأكون دائماً بجانبك يا سلطانة مصر وسيدة القلب.

شجرة الدر: شكراً أيها الأمير، هذا الكلام يفرحني ولكن اجعله مخبوءاً فنحن في حضرة الحرب والموت.

تستطيع أن تذهب وإذا جد أمر فقابلني فوراً وكن بجانبي وكن أول من يبشرني بالنصر.

بيبرس : حاضر يا مولاتي.

(إظلام)

* * *

(بقعة ضوء على الراوي، يتناول من الكشكول مخططا للمنصورة ويفرده أمام الجمهور)

الراوي: جرت معركة المنصورة كما خطط لها الأمير ركن الدين بيبرس البند قداري، كان نصراً كبيراً للمسلمين.

الفرنجة بين قتيل وأسير، وقوات الفرسان الصليبيين الذين وصلوا لدعم الحملة بقيادة روبرت دارتوا أخي الملك أفنيت عن آخرها وقتل قائدها، وملك فرنسا لويس التاسع أسير في دار ابن لقمان وبعد مفاوضات جلا الفرنجة عن مصر ودفعوا فدية ملكهم وعاهدوا بألا يعودوا لغزو مصر، وفي ذلك قال الشاعر مهدداً:

فقل لهم إن أضمروا عودةً لشن حرب أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على عهدها والقيد باق والطواشي صبيح

(يتناول من الكشكول لفافة قماش فيها صورة تورانشاه ويفردها أمام الجمهور).

تورانشاه آخر السلاطين الأيوبيين في مصر. وصل البلاد بعد أن مهدت شجرة الدر له الطريق وأخذت له البيعة من المماليك، وبدلاً من أن يرد لها الجميل راح يضايقها مطالباً إياها بأموال أبيه وهي تقول له: إنها أنفقتها في الحرب وشؤون الدولة، وخوفاً من بطشه ذهبت إلى القدس ودبرت أمر اغتياله.

(بقعة ضوء على شجرة الدر، مع استمرار الضوء على الراوي).

شجرة الدر: (تخاطب الراوي) من أنت ؟ وماذا تفعل هناك؟

الراوي : أنا الراوي يا سيدتي.

شجرة الدر: وماذا تروي؟ أنت لست كالرواة الذين يروون سيرة بني هلال أو سيرة عنترة؟

الراوي : هذا صحيح، أنا لست أروي قصصاً مخترعة وإنما أروي حقائق تاريخية.

شجرة الدر: وهل من الحقائق التاريخية أن تقول: إنني دبرت أمر اغتيال تورانشاه وأنا التي أخذت له البيعة وسلمته الحكم بعد أبيه؟

الراوي : إذن كيف تم اغتياله؟ أنا أردد ما يقوله المؤرخون.

شجرة الدر: صحيح أن تورانشاه تنكر لجميلي، فأنا التي حفظت له العرش، وراح يضايقني في أموال صرفتها في الحرب، لكنني عندما لمست منه روح الغدر تركت القاهرة وذهبت إلى القدس، وأنا لست من اغتاله أو أمر باغتياله.

الراوي : إذن من الذي فعل ذلك؟

شجرة الدر: لم يكتف تورانشاه بمضايقتي فحسب بل امتد حنقه وغيظه ليشمل أمراء المماليك، أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم في المنصورة وإلحاق الهزيمة

بالحملة الصليبية السابعة، وبدأ يفكر في التخلص منهم غير أنهم كانوا أسبق منه في الحركة وأسرع في الإعداد فتخلصوا منه بالقتل على يد أقطاي.

الراوي : وبذلك انتهت مملكة بني أيوب في مصر.

شجرة الدر: كان تورانشاه أحمق غادراً ولم يعلم أن أموراً كثيرة قد تغيرت في مصر، وأن والده الذي كانت تحترمه وتطيعه مماليكه البحرية الصالحية قد مضى.

الراوي : وكما يقولون لكل زمان دولة ورجال.

شجرة الدر: أو دولة ونساء.

(إظلام)

* * *

(مايا تضع التاج أمام شجرة الدر).

مايا : ها قد عدنا من القدس وهاهو تاج مصر بين يديك.

شجرة الدر: ما أطمح إليه أكبر من تاج مصر.

مايا : وماذا تطمحين إليه يا سيدتي؟

شجرة الدر: ما أطمح إليه أمران: الأول إكمال المشروع الذي بدأه زوجي نجم الدين أيوب بتوحيد مصر والشام فهما ركنا النصر على الفرنجة.

الراوي : **(بقعة ضوء على الراوي)** لو تعلمين ما حل بالشام اليوم يا مليكتي؟

شجرة الدر: أنت مرة أخرى! يا من تدس أنفك في كل شيء.

الراوي : مهلاً عليَّ يا مولاتي، يا من عرفت بالعقل الراجح، وحسن الاستماع، وفن الإصغاء.

شجرة الدر: (تبتسم للإطراء) حسن وماذا حل بالشام من بعدي؟

الراوي : **(يتناول من الكشكول جريدة حديثة ويمكن أن يظهر عنوان لافت عليها حول أحداث الحرب).**

من بعدك بمئات السنين يا سيدتي، دخلها غزاة من كل أنحاء الأرض، أما أهلها فقد شغلتهم الصراعات، فهم يتفننون في إفناء بعضهم بعضاً، وتدمير بلادهم بأيديهم، وراح ضعاف الناس ينزحون ويهاجرون في أنحاء الأرض هرباً من الموت فتلتقمهم حيتان البحر وأسماكه. وأصبحت الشام وطناً مجزءاً ممزقاً شر تمزيق.

يا مولاتي في عصركم يحمد لكم أنكم اتحدتم في حربكم ضد الفرنجة الصليبيين والتتار من بعدهم، وفي عصرنا اتحد العربان إلا أقلهم لحرب أهل الشام وأرسلوا ضدها المرتزقة من كل أنحاء الأرض، والحروب الصليبية يا مولاتي مستمرة.

شجرة الدر: عصرنا وعصركم.. ما هذا الكلام!؟ عن أي عصر تتحدث أيها الراوي؟

الراوي : يا مولاتي أنا راوٍ لكل العصور، وتختلط في كشكولي هذا الأزمنة والأمكنة. اعذريني على هذا الاستطراد وتابعي روايتك. ما الأمر الثاني الذي تطمحين إليه؟ **(تختفي بقعة الضوء عن الراوي).**

شجرة الدر: الأمر الثاني الذي أطمح إليه يا مايا خاص بي وهو أن تعود المرأة فتأخذ مكانتها في هذا العالم.

مايا : هذه طموحات كبيرة وعسيرة، فلنكتف بهذا التاج يا مولاتي، إنه ربح كبير.

شجرة الدر: **(تمسك التاج بيديها)** وكيف تم هذا الأمر؟

مايا : سيحدثك الأمير ركن الدين بيبرس وهو بالباب.

شجرة الدر: فليدخل.

(تخرج مايا ويدخل الأمير ركن الدين).

بيبرس : السلام على مولاتي عصمة الدين أم خليل.

شجرة الدر: وعليك السلام يا بيبرس، ما وراءك؟

بيبرس : جرت الأمور كما نريد، أَخَذْتُ البيعة لك من جميع الأمراء المماليك، فأنت اليوم سلطانة البلاد.

شجرة الدر: وعلى أية صيغة جرت البيعة؟

بيبرس : جرت هكذا: «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين».

شجرة الدر: رحم الله ابني خليلاً. وكيف أقنعتهم؟

بيبرس : قلت لهم إن أرملة السلطان نجم الدين أحق بالسلطنة من غيرها، وهي منا فقد كانت مملوكة مثلنا.

شجرة الدر: وغير الأمراء، أقصد عامة الشعب ما رأيهم؟

بيبرس : بعض العامة فرحون، فهم يرون فيك استمراراً للسلطان الراحل نجم الدين أيوب، وبعضهم ساكت، والآخر معارض.

شجرة الدر: والمشايخ؟

بيبرس : المشكلة يا مولاتي مع المشايخ.

شجرة الدر: ومن يقود المعارضة؟

بيبرس : العز بن عبد السلام.

شجرة الدر: سلطان العلماء.. هذا رجل جليل.

بيبرس : ولكنه عنيد.

شجرة الدر: عنيد في الحق كما يراه، كان السلطان يجله ويحترمه ويخشى جانبه.

بيبرس : وجميع الأمراء المماليك يحترمونه.

شجرة الدر: ويخافون شعبيته أيضاً.. قلها بصراحة.

بيبرس : هذا صحيح.

شجرة الدر: والخليفة في بغداد المستعصم بالله، ما رأيه؟

بيبرس : أرسلنا وفداً إلى بغداد يسأله الموافقة.

شجرة الدر: وإذا لم يوافق.

بيبرس : إذن عليه أن يبعد المغول عن مؤخرته. ما مر على الخلافة رجل أفسد ولا أضعف منه.

شجرة الدر: لا يهمني رأيه، ولا موافقته، ولكن يهمني شعبي.

بيبرس : سنعالج الأمور حتى يُجمع الجميع على البيعة.

شجرة الدر: أرجو أن تعالجوها بالحسنى يا ركن الدين.

بيبرس : كما تشائين يا مولاتي.

(إظلام)

* * *

(تبقيع ضوئي متواتر على نقاط معددة من الخشبة يرافق ظهور المتكلم).

(بقعة ضوء على الخليفة المستعصم وهو سكران يشرب الخمرة).

المستعصم بالله: مِن المستعصم بالله خليفة المسلمين، وقاهر الشرك والمشركين، وناصر الحق والدين، إلى مماليك مصر: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً.

(تختفي بقعة ضوء وتتواضع أخرى على أمير مملوكي).

أمير مملوكي: من الأسر والعبودية خرجنا، كفانا بيعاً وتداولاً في أسواق بغداد وحمص والشام والقاهرة، يبيعنا التجار في أسواق النخاسة ويشترينا المترفون والملوك والفجار. ولأن شجرة الدر منا، عرفت الرق والعتق فقد بايعناها سلطانة على مصر، وعندما استلمت السلطنة أغدقت الأموال والإقطاعيات علينا نحن كبار الأمراء.

انتهى عهد السادة وبدأ عهد المماليك، ولتحيا مصر المحروسة.

(تختفي بقعة الضوء وتتوضع أخرى على العز بن عبد السلام).

العز: أنا العز بن عبد السلام لا أستطيع أن أعطي الفتوى في هذا الأمر. إن شجرة الدر أرملة مولانا السلطان نجم الدين نُجِلُّها ونحترمها، ونعلم أنها محررة، ولكن مبايعتها بالسلطنة وحكم مصر أمر مخالف للشرع. وإذا فكر أي من المماليك أن يتولى حكم مصر فعليه أن يتحرر أولاً من الرق، وهذا هو حكم الشرع.

(تختفي بقعة الضوء وتتواضع أخرى على فلاح مصري يحمل معولاً على كتفه).

فلاح مصري: بايعتُ شجرة الدر لأنها ابنة الأرض، وشقيقة المعاناة مثل كل العاملين والفلاحين المساكين. إنها الأم لنا جميعاً، وقلب المرأة رحيم، وعدتنا بحياة طيبة، ووزعت علينا بعض خيرات البلاد، لقد جربنا حكم الرجال فَجِعنا ونُهبنا وقُتِّلنا، فلنجرب حكم هذه المرأة الطيبة، والسلام لمصر المحروسة.

(رجل تباغته حزمة الضوء وهو يحاول أن يلصق في ذقنه لحية ضخمة جداً وطويلة تصل إلى ركبتيه فيحاول تحاشي الضوء ولكن الضوء يلاحقه).

الملتحي : هذا كفر والعياذ بالله.. أن تتولى امرأة ناقصة عقل ناقصة دين، تحبل وتحيض، وربما تكون غير مختونة أيضاً، الحكمَ في مصر، يا مجير أجِرنا، إنه الكفر الصُّراح.

إننا ندعو جميع المسلمين إلى الخروج في مظاهرات حاشدة من المساجد بعد كل صلاة جمعة هاتفين: الشعب يريد إسقاط حكم النساء..

الدم.. الدم يا مسلمين.

(تختفي بقعة الضوء وتتوضع أخرى على شجرة الدر وهي على العرش ووصيفتها مايا بجانبها على الأرض محتبية وهي تكاد تنتهي من صنع تاج من الزهور لمليكتها).

شجرة الدر: يا لهؤلاء من ناكرين للجميل يا مايا، وأنا التي حققت لهم النصر والجلاء، فما إن جلست على العرش حتى قبضت على زمام الأمور وأحكمت إدارة شؤون البلاد، وكان أول عمل اهتممت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد وإدارة مفاوضات مع الفرنجة انتهت بالاتفاق مع الملك لويس التاسع الذي كان أسيرًا لديّ بالمنصورة على إخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى مقابل تسليم دمياط ودفع فدية كبيرة قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها قبل رحيله والباقي بعد وصوله إلى عكا مع تعهد منه بعدم العودة إلى سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى..

لست أول ملكة ولا آخر ملكة في التاريخ، القرآن الكريم ذكر ملكة اليمن بلقيس باحترام وأثنى على شجاعتها وحكمتها ورجاحة رأيها في تجنيب وطنها مخاطر الحرب والدمار.

يا لنكران الجميل!

(مايا تنهي عملها وتنهض وتضع على رأس مليكتها تاج الزهور معجبة ومواسية. ترفع بقعة الضوء عن شجرة الدر).

* * *

الراوي : **(يتناول من الكشكول كتاباً)** اشتدت المعارضة على تولي امرأةٍ عرش مصر. كانت المظاهرات والاحتجاجات تخرج من المساجد بعد صلاة الجمعة وتجوب شوارع القاهرة **(أصوات الجماهير في احتجاجات غاضبة)** إنه عصر الذكورة ولم تدرك شجرة الدر أن العصر الأمومي قد أفل. **(تعود أصوات الاحتجاجات)**.

ثمانون يوماً فقط هي مدة حكم السلطانة شجرة الدر اضطرت بعدها إلى التنازل عن السلطة عام (٦٥٠هـ ١٢٥٠م) إلى الأمير المملوكي عز الدين إيبك أتابك(*) العسكر الذي تزوّجته ولقب بالملك المعز. **(يفتح الكتاب ويقرأ)** يقول المؤرخ ابن تغري بردي: كانت شجرة الدر مستولية عليه في جميع أحواله، ليس له معها كلام. وبلغت بها السيطرة عليه أن منعته من زيارة زوجته وابنه.

إنها ملكة مصر.. ولكنها امرأة أيضاً لم تتخلص من غيرة النساء وحب تملك الرجل والسيطرة!

شجرة الدر: مهلاً أيها الراوي اقرأ ما كتبه هذا المؤرخ في الصفحة التالية.

الراوي : حاضر **(يقلب صفحة ويقرأ)** وكانت شجرة الدر خيّرة دَيِّنة، رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البِرّ، معروفة بها.

(*) الأتابك معلم ومربي أبناء الملوك.

(يغلق الكتاب ويتابع الرواية).

وهكذا ظلت شجرة الدر تحكم باسم زوجها الملك المعز ثم تقاسمه وتنافسه في تصريف شؤون الدولة إلى أن اشتد عوده وراح يبعدها عن الحكم ولزمت السكنى في القلعة.

(ضوء على شجرة الدر).

شجرة الدر: نعم لزمت داري في القلعة، كان يجب أن أفعل ذلك، لا أريد أن يسيل دم في شوارع القاهرة.

(ضوء على الراوي).

الراوي : ولما تخلص الملك المعز من أكثر الأمراء شراسة فارس الدين أقطاي سنة (٦٥٢ هـ١٢٥٤م) هرب كبار مماليك البحرية إلى الشام.

(ضوء على شجرة الدر).

شجرة الدر: استدرجه إلى قلعة الجبل واغتاله بسيف مملوكه سيف الدين قطز وألقى برأسه إلى المماليك البحرية الذين تجمعوا تحت القلعة مطالبين بالإفراج عنه وفر المماليك البحرية من مصر إلى سوريا والكرك وسلاطنة الروم السلاجقة وأماكن أخرى، وكان في مقدمتهم بيبرس وقلاوون الألفي وبلبان الرشيدي وسنقر الأشقر الذين فروا إلى دمشق.

(ضوء على الراوي).

الراوي : اتخذ الملك المعز لنفسه مماليكه الخاصة وسماها المماليك المعزّية وأصبح الحاكم الأوحد في مصر، لكن شجرة الدر قررت أن ترسله إلى «موت» كما فعلت عشتار مع تموز.

إنه الصراع الأبدي.

(ضوء على شجرة الدر ووصيفتها مايا تجلس بجانبها).

شجرة الدر: يجب أن أرسله إلى «موت» فقد أصبح طاغية مصر.

مايا : يا سيدتي دعيه ولا تكرري خطيئة عشتار.

شجرة الدر: يجب أن يموت يا مايا، سلبني عرشي وهجر فراشي.

مايا : يا سيدتي، مهلاً، أنت غاضبة لأنه بدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

لا تليق بك غيرة النساء يا مولاتي.

شجرة الدر: وهل أنا إلا امرأة يا مايا، ما الذي يراه في تلك الفتاة ولا يراه فيّ. أنا التي كنت أملأ قلب السلطان نجم الدين أيوب وعقله وأشاركه الحكم.

(ضوء على الراوي وهو يفتح الكتاب ويقرأ فيه).

الراوي : وكتبت إليه مصالحة تدعوه إلى فراشها بالكلمات المعسولة تسترضيه وتعتذر عما حصل، وتمنيه الأماني العذاب فانخدع بكلامها وذهب إلى القلعة حيث لقي حتفه هناك خنقاً في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م). وقالت لمماليكه المعزّية إنه قد مات فجأة في الليل فلم يصدقوها، وقبضوا عليها وسلموها إلى زوجته فضربتها وصيفاتها بالقباقيب ورموها من أعلى القلعة جثة هامدة.

(بقعة ضوء على شجرة الدر مع استمرار البقعة الأخرى على الراوي).

شجرة الدر: هيه.. أنت.. أيها الراوي الغبي. سلطانة مصر تموت ولكن لا تضرب بالقباقيب، ما هذا بحقيقة.

الراوي : **(ينقر على صفحة الكتاب مشيراً إليه)** انظري، هذا ما كتبه المؤرخون عنك يا سيدتي.

شجرة الدر: الحقيقة هي ما أكتبه أنا عن نفسي لا ما يكتبه المؤرخون.

الراوي : وماذا تكتبين عن نفسك؟

شجرة الدر: سترى.

(إظلام)

* * *

(إضاءة.

شجرة الدر على العرش في كامل بهائها وزينتها وتاجها والصولجان في يدها. ووصيفتها مايا أمامها وفي يدها سلة تين).

شجرة الدر: هل أحضرت ما طلبته منك يا مايا.

مايا : نعم يا مولاتي، هذه سلة التين وفيها الأفعى.

شجرة الدر: ألم يرك أحد وأنت قادمة؟

مايا : تعلمين أنه لا أحد يراني غيرك، كما هيأت لك ثوبك وتاجك وصولجانك كما أمرت.

شجرة الدر: **(تقرب السلة منها)** وهل مفعول سم الأفعى فيها سريع وشديد.

مايا : لدغة واحدة ويشعر المرء بلذة عظيمة ويسافر سريعاً إلى العالم الآخر.

شجرة الدر: أحسنت يا مايا. تستطيعين أن تنصرفي.

مايا : سيدتي.

شجرة الدر: ماذا تريدين يا مايا؟

مايا : سيدتي ألا تخلطين بين شخصيتك وشخصية كليوباترا التي انتحرت بالطريقة نفسها؟

شجرة الدر: هذه مصر، وأنا كليوباترا، وليس المعز الذي جاء يغتصبني ويغتصب عرشي إلا أوكتافيوس.

لا أحد يستطيع أن يغتصب شجرة الدر وعرشها.

انصرفي يا مايا .. يا قرينتي وصديقتي.

(تخرج مايا).

(إظلام وإضاءة وموسيقا جنائزية.

شجرة الدر على عرشها في كامل أبهتها وهي ميتة مبتسمة، وعلى صدرها أفعى صغيرة تنسل).

- ستارة النهاية -

حلب ٢٠١٥/٨/٢٤